صلاح الدين الأيوبي

في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي هجمت الجيوش الصليبية على البلاد الإسلامية محاولة انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . وقد استطاع الصليبيون بفضل كثرتهم ، وتفكك الروابط بين ملوك المسلمين انتزاع بلاد الشام — ومن بينها بيت المقدس — من أيدي المسلمين ، وتكوين عدة إمارات يحكمها أمراء مسيحيون .

وعندما فتح الصليبيون بيت المقدس أتوا من الفظائع مع المسلمين ما تقشعر لذكره الأبدان ؛ فقتلوا آلافاً من الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، وسلبوا الأموال ، واغتصبوا ما في الدور ، وحولوا المساجد إلى كنائس وبيع ، وخربوا بيت المقدس ، وأحرقوا القصور .

عندئذ هاجت خواطر المسلمين ، وقاموا بعدة حملات لإخراج المسيحيين من بيت المقدس ، وبلاد الشام ، ولكنهم لم يفلحوا ؛ لأن الجيوش الصليبية كانت تفوقهم في العدة والعدد ، بفضل تدفق المتطوعين والمغامرين من جميع سكان أوروبة .

obeikandi.com

فى تلك الأثناء كانت أراضى دجلة والفرات خاضعة للحكم الإسلامى ، وكان يحكم بلاد الموصل ، وجزءاً من آسيا الصغرى أمير مسلم يدعى نور الدين . أما مصر فكانت تحكمها أسرة الفاطميين ، وكانت قد بلغت من الضعف مبلغاً يرثى له ، حتى إن الجيوش الصليبية فكرت فى غزوها والاستيلاء عليها .

وعند منابع الفرات كانت تقطن قبائل قوية الشكيمة ، شديدة البأس ، اعتنقت الإسلام من زمن بعيد ، وجاهدت فى سبيل الله جهاداً صادقاً ؛ تلك القبائل هى قبائل الأكراد .

بعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس بنصف قرن من الزمان ، ولد لرجل من هذه القبائل ولد أسماه (صلاح الدين) ، وقد اضطرت الأحوال السياسية ذلك الوالد أن يرحل عن بلاده لغضب الوالى عليه ؛ فغادر مسقط رأسه ، وجعل يتنقل فى البلاد حتى استقر به النوى فى مدينة بعلبك ؛ وهى مدينة عظيمة على ربوة مرتفعة ، تحيط بها المروج الخضراء ، وتكتنفها الحدائق والبساتين ؛ ذات الفواكه اللذيذة ، والثمار الطيبة ؛ وكانت منازلها غاية فى الجمال والروعة تدل على رقى أهلها وحضارتهم .

نشأ صلاح الدين فى تلك المدينة ينعم بخيراتها ، ويمتع

obeikandl.com

طرفه بجمالها . ولما شب أرسله والده إلى مدرسة المدينة ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان والده خلال ذلك يمرنه على استعمال أدوات الحرب ، وطرق القتال كعادة المسلمين فى ذلك الوقت ؛ فأظهر صلاح الدين مهارة فائقة أدهشت والده . وكان إلى جانب هذا دمث الخلق ، نبيل النفس ، رقيق القلب ، مرهف الحس .

كان يرتاد مجالس عظماء المدينة ، ويستمع إلى أحاديثهم عن الفظائع التى يأتيها الصليبيون ، وما يقاسيه المسلمون على أيديهم من الذل والهوان ، فكانت تلك الأحاديث تحز فى قلب الفتى (صلاح الدين) ، ويود لو تتيح له الأيام الفرصة للانتقام من أولئك الأعداء الذين لا يقدرون الإنسانية قدرها ، ولا تجد الرحمة إلى قلوبهم طريقا . وكان يسمع إلى جانب ذلك سير أبطال الحروب من المسلمين الذين يجاهدون فى سبيل الله ، ويعملون لنصرة دينه الحنيف ، وإنقاذ بلادهم من أيدى أولئك الأعداء ، فكانت تتوق نفس صلاح الدين لأن يكون أحد أولئك الأبطال الذين يتحدث الناس عنهم فى إجلال واحترام ، ويروون أخبار انتصاراتهم ، وأحاديث بطولتهم .

كان لصلاح الدين عم يدعى (أسد الدين شيركوه)

obeikandi.com

ارتقى بفضل مهارته وشجاعته إلى مرتبة القواد العظام فى جيش الأمير نور الدين الذى كان يحكم بلاد الموصل ، وجزءا من أرض الشام والجزيرة والأناضول . وصادف أن طلب الخليفة الفاطمى بمصر المعونة من نور الدين لصد هجمات المسيحيين عن مصر ، فأرسل قائده القدير (أسد الدين شيركوه) على رأس جيش عظيم إلى البلاد المصرية ؛ لتخليصها من الصليبيين الذين أغاروا عليها بسبب خيانة بعض الوزراء .

وهنا سنحت الفرصة لصلاح الدين ، وهيأت له المقادير ما كانت تتوق إليه نفسه ؛ حيث أخذه عمه معه إلى مصر . فأظهر صلاح الدين من ضروب البسالة والشجاعة فى قتال الصليبيين ما أدهش القواد . وأخيراً تم الظفر لجيش (شيركوه) ، فعينه الخليفة الفاطمى وزيراً له . فأقام هو وابن أخيه فى قصر جميل بالقاهرة تحيط به الحدائق الغناء ، ذات النخيل والأعناب ، وتجرى إليه الجداول بماء النيل العذب .

أخذ صلاح الدين يتقرب من الشعب المصرى ، ويختلط بجميع طبقاته ، وتفقد أحوال الأهلين ، وبحث ودقق فى كل ما رأى وسمع ، فأعجب به المصريون وأحبوه ، وتمنوا أن لو يأتى ذلك اليوم الذى يتولى فيه أمرهم لينقذهم مما يرزحون

تحت أعبائه من ظلم الحكام ، وجور الوزراء ، واستبداد الجند . وقد كان لهم ما تمنوا ؛ فبعد أعوام خمسة مات (شيركوه) ، فحزن عليه صلاح الدين حزناً عميقاً ، بيد أن ذلك الحزن خفف من وطأته اختياره وزيراً للخليفة الفاطمى بدلا من عمه .

صلاح الدين الأيوبى

خبر صلاح الدين شئون البلاد حينما كان مساعداً لعمه ، فعرف ما آلت إليه مصر من التأخر بسبب جور الحكام ، وقسوة

الجند ، وانتشار الرشوة ، وعدم العناية بوسائل الرى ، ووجود طوائف من اللصوص والمجرمين يعيثون فى الأرض فساداً ، لا يخافون سطوة أمير ، ولا بطش حاكم .

عرف صلاح الدين هذا كله فجعل نصب عينيه القضاء على المظالم ؛ فرد الحقوق إلى ذويها ، ومنع الرشوة ، وعاقب كل من يرتكبها أشد عقاب ؛ وضرب على أيدى اللصوص ، وعنى بالرى ، ونظم جباية الخراج ، وتفقد أحوال الناس ، وفتح أبوابه لطلاب الحاجات ، وجلس بنفسه للنظر فى المظالم ، وأعد جيشاً قويا هابه الصليبيون ، وخشوا بأسه . فأحبه المصريون ، وأخلصوا له الإخلاص كله .

ولما مات الخليفة الفاطمى أعلن صلاح الدين للناس انتهاء الحكم الفاطمى للبلاد ، ونصب نفسه حاكماً عليها من قبل سيده (نور الدين) الذى كان قد زاد نفوذه ، وقوى سلطانه بفضل انتصاراته المتوالية على جيوش الصليبيين .

نزل صلاح الدين قصر الخلافة بالقاهرة ، وأقام فيه ، واتخذ لنفسه الحرس من جنده المخلصين له ، وتقاطرت وفود البلاد عليه تهنئه ، وتدعو له بدوام الملك والسلطان ، وترجو أن يكون عصره عصر سعادة وهناءة للجميع . سر صلاح الدين أن يرى تعلق الشعب به ، وحبه له ، فأعلن أنه لن يسير فى حكمه بغير العدل ،

وأنه لن يحتجب عن طالب حاجة ، ولن يترك مظلوماً حتى يأخذ بحقه من ظالمه ، ولن يدع عابثاً يتمادى فى بغيه وعدوانه .

حينما اطمأن صلاح الدين على استتباب الأمر داخل البلاد ، أخذ يفكر فى تنفيذ ما كانت تتوق إليه نفسه منذ الصغر : من طرد الصليبيين من بيت المقدس ، وتخليص المسلمين من شرهم وأذاهم . فأعد جيشاً عظيماً كامل العدة ، كثير المدد ، وقاده بنفسه بعد أن بث روح الشجاعة والجرأة والإقدام فى نفوس جنده ، وذكرهم بأن من يموت منهم سيكون من الشهداء الذين يدخلهم الله جناته الواسعة التى أعدها لعباده المتقين .

سار الجيش فى حماسة وشجاعة ، وقطع صحراء سيناء فى أيام القيظ من غير أن تهن قوته ، أو تفتر عزيمته ، أو يصيبه كلال ، حتى وصل الجمع إلى دمشق — وكانت خاضعة للصليبيين — ففتحوها بعد قتال لم يدم طويلا . ثم تقدم إلى البلاد الأخرى يفتحها ، وكلما اقترب من بلد أو حصن دب الذعر فى نفوس حاميتها ، وولت الأدبارَ هاربة من وجه صلاح الدين ، وجيشه الباسل . وأخيراً توجه إلى بيت المقدس ، وحاصره حصاراً شديداً ، وأبدى من ضروب البسالة ما أدهش قواد الصليبيين . ولما رأوا أنه لا قبل لهم بدفع صلاح الدين ورده عن دخول بيت المقدس سلموا له المدينة .

دخل جيش صلاح الدين بيت المقدس ظافراً منتصراً ، ولكنه لم يسفك دماً ، ولم يقتل إنساناً ، ولم يأسر أحداً ، ولم تنهب جيوشه بيتاً ؛ فقد أمّن الجميع على أموالهم وأمتعتهم ، وساوى بين الكل في الحقوق والواجبات ؛ فدهش الصليبيون لعدله وصفحه .

وبينما هو سائر في طرقات بيت المقدس إذ تقدم شيخ مسيحي ، يعلق صليباً ذهبيا في عنقه ، وقال له :

« أيها الملك لقد كتب لك الظفر على أعدائك ، فلم لم تنتقم منهم ، وأنت تعلم أنهم أتوا من الفظائع حينما فتحوا بيت المقدس ما ترتعد له الفرائص رعباً وفزعاً ؟ ! »

فقال له صلاح الدين : « ياهذا يمنعني من ذلك ديني وضميري » .

فقال له الشيخ : « وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم بدءوكم بالعداوة ، وساموا قومكم الخسف والعذاب ؟ ! »

فقال له : « نعم إن ديننا يمنعنا من أن نجاري خصومنا في عنادهم ، ويأمرنا بأن نكون أوفياء بعهودنا ، وأن نصفح عمن أساء ، ونتجاوز عمن أثم عند المقدرة » .

فقال الشيخ : « انعم الدين دينكم ، وإنني أحمد الله على أن هداني إلى ما فيه خيري في أخريات أيامي » . ثم سأل : « وماذا يفعل من يريد الدخول في دينكم ؟ »

فقال له صلاح الدين : « يؤمن بوحدانية الله ، وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويفعل ما أمر به الله ، ويجتنب ما نهى عنه » . عند ذلك أسلم الشيخ ، وحسن إسلامه ، واقتدى به كثير من بنى قومه .

ولما اقترب صلاح الدين الأيوبى من مسجد بيت المقدس الذى حوّله الصليبيون إلى كنيسة حينما فتحوا بيت المقدس ، أشار إلى رجاله بأن يُنزلوا الصليب الموضوع فوق أبرز جزء فيه ؛ ففعلوا بين تهليل القوم واستبشارهم . ثم دعا لصلاة الظهر فى هذا المسجد ، فاجتمع المسلمون ، وكلهم فرح مسرور بهذا الظفر الذى علت به كلمة الله ، وأعاد إلى المسلمين سابق عزهم وهيبتهم .

رغب بعض الصليبيين فى الهجرة من بيت المقدس إلى الولايات الصليبية فى الشمال ، فأجابهم صلاح الدين إلى طلبهم ، وأرسل معهم بعض جنده لحراستهم . ولما جمعت الغنائم وقسمت بين الجند والأمراء تنازل صلاح الدين عن نصيبه لفقراء المسيحيين ، وأعتق من كانوا من نصيبه من الأسرى . وكان من بينهم فتاة فرنسية ؛ فتقدمت نحو صلاح الدين وقالت له : « لقد قتلت أبى أيها المجرم السفاك ، وأسرت أخوىّ ، واستوليت على ما كنا نملك ؛ فلم يعد لى عائل ، ولم يبق لى ما أقتات منه . وها أنتذا تمن علىّ بالعتق ، كيما يزداد بلائى » .

لم تثر تلك الشتائم المرة صلاح الدين ؛ بل تجاوز عنها ، وهش في وجهها ، وقال لها : « ما اسم أخويك ؟ » فذكرت له اسميهما . فبعث بمن أحضرهما ، وأحضر معهما القائد الذى كان الأخوان من نصيبه في القسمة ، فطلب إليه صلاح الدين أن يبيعه هذين الأسيرين . فأبى القائد ذلك عندما عرف غرض سيده ، وخلى سبيلهما . ولكن صلاح الدين أبى إلا أن ينقده ثمنهما مضاعفاً ، ثم رد لهما مالهما ، وأقبل نحو الفتاة وقال : « أما زلت عند رأيك من أنى مجرم سفاك ؟ »

فقالت الفتاة : « عفواً مولاى ، فإنما هى ثورة الحزن على أبى المقتول ، وفقد العائل ، وضياع المال ، وخوفى مما تأتى به الأيام ، وما كنت أسمعه فى بلادى خطأ عن ظلم المسلمين وجورهم ، كل هذا جعلنى أنطق بما لا أعى ، وإنى مع هذا لست يائسة من صفحك ، وكرم عفوك » .

ولما همت بالانصراف قال لها صلاح الدين : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ »

فقالت : « إلى بلادى » .

فقال لها : « وما ذا أنت قائلة لقومك ؟ »

قالت : « أقول لمتعصبيهم كلمة الحق فى الإسلام والمسلمين » .
ثم غادرت بيت المقدس هى وأخواها بعد أن أسلموا . ولما

وصلت إلى الإمارات الصليبية فى الشمال أخذت تبشر بالإسلام بين قومها ؛ فلم يرقهم ذلك العمل الذى تأتيه واحدة منهم ، فائتمروا بها وقتلوها ، فماتت شهيدة مجاهدة فى سبيل الله و إعلاء كلمته .

وصلت الأخبار إلى أوروبة معلنة بسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين ؛ فهاجت الخواطر ، وحرّض القسس والرهبان الملوكَ والأمراء والشعوب ، فاندفعوا كالسيول الجارفة نحو البلاد الإسلامية لتخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين .

وصلت الجيوشُ الصليبية إلى بلاد الشام فى الحملة الثالثة تحت قيادة سبعة وعشرين ملكا وأميراً ، وكان من بين هؤلاء الملوك (ريتشارد) — الملقب قلب الأسد — ملك الإنجليز ، و (فيليب) ملك فرنسا ، و (فردريك) ملك بروسيا ؛ وغير هؤلاء من القواد والملوك العظام .

حينما اجتمع قواد الصليبيين وملوكهم فى بلاد الشام بعثوا إلى صلاح الدين ليعرضوا عليه مطالبهم ، فسار إليهم فى كتيبة من جنده الأشداء ، ثم دخل عليهم خيامهم ، وطلب إليهم أن يقولوا ما يريدون . فقالوا له : « تعلم أننا جئناك بجيوش لا قبل لك بها ، وأن أوروبة قد بعثت إليك بملوكها وأبطالها . فخير لك ولقومك أن تخلى بيت المقدس فى الحال ، و إلا فلا تلومن إلا نفسك » .

فقال صلاح الدين : « إنكم تعتزون بكثرتكم ، ولكننا نعتز بقوة إيماننا ، وصدق عزائمنا . وإنكم قوم تحبون الدنيا ، وتتعلقون بها ، أما نحن فقوم نحب الآخرة ، ونعمل لها ؛ ولن ينتصر من أحب الحياة ، ولن ينهزم من طلب الموت وأراده » .

فقام (ريتشارد) من مكانه وقال : « يا صلاح الدين ! إنني ريتشارد ! إنني قلب الأسد ! نحن نعتز بقوتنا قبل كل شيء » . ثم أتى بقضيب من الحديد يبلغ طول قطره ثلاثة (سنتيمترات) ، ووضع أحد طرفيه على نضد ، والطرف الآخر على نضد آخر ، ثم شهر سيفه ، وضرب به القضيب ، فشطره شطرين . عند ذلك عاد (ريتشارد) إلى مجلسه شامخ الرأس ، يتيه كبراً وعجباً بتلك القوة العظيمة . أما الملوك والأمراء ، فقد صفقوا طويلا لتلك البطولة النادرة ، ولكن صلاح الدين نظر إلى (ريتشارد) في سخرية واستهزاء ، ثم قال : « ليست أمور الحرب راجعة إلى صلابة السيوف ، وقوة الضرب ، وإنما مرجعها إلى مضاء السيف ، وإجادة الطعن » . ثم أخرج منديلا من الحرير الرقيق من منطقته ، وقذف به إلى أعلى ، ثم استل سيفه من غمده ، وتلقف به المنديل في أثناء هبوطه ، فشطره شطرين . فبهت الحاضرون ، وساد المكان صمت عميق .

ولما سقط شطرا المنديل على الأرض مد صلاح الدين سيفه ، ورفعهما فوق طرفه المتطرف ، وتقدم نحو (ريتشارد) ، وألقاهما في حجره ثم قال : « بمثل هذه السيوف سوف نلقاكم غداً » . ثم خرج من مجلسهم .

قام (ريتشارد) من مجلسه ، وأخرج سيفه من غمده ، وأخذ أحد شطرى المنديل ، وجعل يمرره على حد سيفه محاولا قطعه فلم يفلح ، فزادت دهشة الملوك والأمراء ، وزاد إعجابهم بصلاح الدين .

تفرقت كلمة الصليبيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام ، ودب الخلاف بينهم ، وجعل كل ملك يكيد للآخر . وكان هناك عداء شديد بين (ريتشارد) ملك الإنكليز ، و (فيليب) ملك فرنسا بسبب امتناع (ريتشارد) عن الزواج من أخت (فيليب) بعد أن خطبها .

طوقت الجيوش الصليبية مدينة عكا من كل جانب ، ولكن حرارة الصيف اشتدت وطأتها عليهم ، وتفشت الأمراض فيهم ، وازدادت العداوة والبغضاء بينهم ، فعادوا جميعاً إلى بلادهم ، ولم يبق إلا (ريتشارد) الذى ظل محاصراً للمدينة بجيشه ، وعاونه فى ذلك أمراء الإمارات الصليبية فى الشام ونصارى تلك الجهات .

obeikandl.com

دافع المسلمون عن المدينة دفاعاً مجيداً ، ولم يستطع (ريتشارد) دخولها إلا بعد أن قتل آخر جندى من جنود المسلمين المدافعين عن حصونها . أما صلاح الدين فإنه مضى فى إعداد الجيوش ، وتحصين بيت المقدس لملاقاة الصليبيين فى موقعة فاصلة .

التقى جيش (ريتشارد) مع جيش صلاح الدين ، فعسكر الجيشان وجهاً لوجه عند بلدة (حطين) ، وكان ريتشارد يخرج لتفقد أحوال جيشه فى الليل ليطمئن على راحة قواده وجنوده ، وليقاسمهم مرحهم وطربهم ، ويبث الشجاعة فى قلوبهم ، ويخفف عنهم آلام البعد عن الأهل ، ويذهب عن نفوسهم خوف الموت أو القتل ، ويذكرهم بلذة الظفر والنصر التى من أجلها فارقوا بلادهم .

وكان قد اصطحب معه فتاة أخلصت له ، وعملت على توفير أسباب الراحة له ، كانت تتبعه عن كثب أنى سار خلال الليل ؛ لأنها كانت تسمع بأن هناك مؤامرة تدبر فى الخفاء لاغتيال (ريتشارد) . ولما أخبرت الملك بمخاوفها عليه ، لم يأبه لقولها ؛ لأنه كان شجاعاً باسلا لا يهاب الموت ، ولا يعتقد أن هناك من جنوده من يجرؤ على أن يجرد سيفه فى وجهه . وفى إحدى الليالى تفقدت الفتاة (ريتشارد) فى خيمته فلم تجده ، فخرجت تفتش عنه ، فضلت الطريق ، ووصلت إلى معسكر المسلمين ، فرآها أحد الحراس من

بُعد ، فظنها جندياً يتجسس أخبارهم ، ويكشف مواقعهم ، فرماها بسهم أصابها ، فسقطت على الأرض مضرجة في دمائها .
وصادف أن مر صلاح الدين كعادته كل ليلة على تلك البقعة فسمع عن كثب أنيناً محزناً ، فتقدم نحو مصدر الصوت ، وإذا هو يجد هذه الفتاة تئن وتتوجع من جرحها ، ولما رأت صلاح الدين ذعرت منه ، وأصابها خوف شديد ، فأغمى عليها ، ولم تعد تحس شيئاً مما يجرى حولها . حملها صلاح الدين على يديه ، وسار بها حتى وصل إلى أقرب خيمة في المعسكر ، ودعا بالطبيب فنزع السهم من فخذها ، وأخذ في علاجها بعد أن أوصاه بها صلاح الدين خيراً .

برئت الفتاة من مرضها ، وكانت تتوق لأن تغادر معسكر المسلمين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح برغباتها ؛ لأنها كانت تخشى بأس المسلمين . أما صلاح الدين فقد أعجب بها الإعجاب كله ، بيد أنه كان في شغل عنها بإعداد معدات الحرب ، وإدارة الجيش ، وتنظيم شئون البلاد .

التحم الجيشان ، واقتتلا قتالاً طويلاً أظهر فيه (ريتشارد) من المهارة الحربية والقدرة على تنظيم الجيش ما جعل صلاح الدين يعجب بالرجل ، ويجله ويحترمه على الرغم مما بينهما من عداوة .

وهكذا تكون نفس القائد الكبير ، يقدر الشجاعة والبطولة أنى كانت .

أسر المسلمون بعض الصليبيين ، فلما عرضوهم على صلاح الدين فى خيمته عرفت الفتاة فى الأسرى أحد القواد الملازمين لريتشارد ، فطلبت إلى صلاح الدين أن يسمح لها بلقاء ذلك القائد ، فلما أذن لها سألته عن مولاه ، فأخبرها بأن هناك مؤامرة تدبر لاغتياله فى هذه الليلة ، وأن هناك من أعدائه الفرنسيين وبعض الإنكليز من تحالفوا وصمموا على قتله . ثم قال لها : « لقد سمعت منهم ذلك فى أثناء الموقعة ، ولما هممت بالذهاب إلى مولاى لإخباره وقعت أسيراً فى أيدى المسلمين » .

فذعرت الفتاة وجعلت تبكى وتنتحب ، فسمعها صلاح الدين ، فأقبل عليها ، وأخذ يسألها عن سر بكائها ، فأخبرته بكل شىء ولم تعقب .

* * *

كان من عادة (ريتشارد) منذ أن بدأت المعركة — أن يخرج فى كل ليلة عقب انتهاء القتال ؛ ليتفقد بنفسه القتلى والجرحى من جنده ، ومعه ثلاثة من خاصة قواده . وفى تلك الليلة التى دبر فيها أعداؤه المكيدة خرج بمفرده ؛ لأن أحد القواد الثلاثة أسر ، والآخرين قتلا فى أثناء المعركة .

كانت كثرة القتلى تفتت قلب (ريتشارد) ، وتحزنه حزناً شديداً ، وكلما رأى قائداً صريعاً من يعرفهم أصابه هم وجزع . وفى ناحية من الميدان رأى قائداً ملقى على وجهه ، فجثا على ركبتيه ، وفى رفق جعل يقلبه ، فعرف أنه أحد القواد الفرنسيين الذين كان يقربهم من مجلسه ، فتأثر لهذا ، ووقف مطرقاً كثيراً ثم مضى .

هب ذلك القائد من مرقده ، ونفخ فى بوق صغير كان معه ، ولشد ما كانت دهشة (ريتشارد) حينما رأى أشباحاً تهب من مراقدها ، وتتسلل نحوه فى الظلام ، فتراجع إلى الوراء ، وكادت تخونه قواه ، ولكنه تذكر سيفه فاستله من غمده ، ثم صاح فى وجه تلك الأشباح قائلا : « من أنتم . . ؟ »

فقال له ذلك القائد : « نحن من سنقطع اليوم رقبتك . . »

فقال (ريتشارد) : « لن يكون لكم ذلك . . ! إننى (ريتشارد) . . ! إننى قلب الأسد . . ! إنه لم يخلق بعد ذلك الرجل الذى يقتلنى ، ولكن خبرونى أولاً : هل فيكم إنجليزى ؟ »

فقال له القائد : « نعم » . فلم يتردد (ريتشارد) فى الهجوم عليهم ، وأخذ يطيح برقابهم ، الواحد تلو الآخر ، ولكنهم التفوا حوله ، وتكاثروا عليه ، وكلّ ساعده من كثرة

الضرب ، وأخذت قواه تخور ، فأدرك أنه هالك لا محالة . وفى تلك اللحظة الرهيبة وصلت كتيبة من جند المسلمين ، فانقضت على هؤلاء الخونة ، وفرّقتهم من حول (ريتشارد) ، وأعملت فيهم السيف حتى قضت عليهم ، ثم طلبوا إلى (ريتشارد) أن يسير معهم إلى معسكر مولاهم صلاح الدين الذى بعث بهم لإنقاذه من أيدى أعدائه .

لم يتردد (ريتشارد) فى المسير مع تلك الكتيبة إلى معسكر المسلمين ؛ لأنه كان يعرف فى صلاح الدين النبل والترفع عن الدنايا ، ولأنه اعتقد أن القائد الذى يخلص عدوه من الموت — بيد أعدائه — تأبى عليه نفسه أن يأسره .

قابل صلاح الدين (ريتشارد) مقابلة الصديق لصديقه ، لا العدو لعدوه ، حيث أكرم وفادته . وحينما كانا معاً يتحدثان همس صلاح الدين فى أذن أحد أتباعه فخرج من الخيمة . وبعد قليل دخلت الفتاة ، فما إن وقع نظرها على (ريتشارد) حتى أسرعت إليه ، ثم انحنت على يد مليكها فقبلتها . فعجب من أمر مجيئها إلى معسكر المسلمين ، وبقائها فيه ، ورماها بالغدر والخيانة ؛ ولكن صلاح الدين هدأ من ثائرته ، وذكر له أنها كانت السبب فى إنقاذه من الموت فى هذه الليلة . وقصت الفتاة على (ريتشارد)

obeikandl.com

ما وجدته فى صلاح الدين وقواده المسلمين من النبل والشرف وكرم الضيافة .

ولما هم (ريتشارد) بالانصراف أراد أن يأخذ الفتاة معه ، فقال له صلاح الدين — ليختبره — : « ألا تدعها لى ذكرى لإنقاذك من أيدى أعدائك ؟ »

فقال (ريتشارد) : « لا ياصلاح الدين . إن أدعها لك ، ولتفعل ماتريد . » فضحك صلاح الدين ثم ربت على كتف (ريتشارد) وقال : « ما كنت أحسب أنك فاعل معى مثل هذا … إنها لك أيها الملك ، ولتعلم أن صلاح الدين لم يكن لينتظر على حسن صنيعه جزاء ولا شكورا . وإن كان لى مطمع فى الفتاة قبل اليوم فقد ساوتها منذ اللحظة التى أرسلت فيها الكتيبة لإنقاذك من الموت حتى لا يظن أننى رغبت فى استبقائها ثمنا لما قدمت » .

* * *

انتهت الحرب بين صلاح الدين و (ريتشارد) بانتصار صلاح الدين انتصاراً حاسما ، وعقدت بين الطرفين معاهدة كان من بين شروطها أن يوقف القتال بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر .

عاد (ريتشارد) إلى بلاده من غير أن يحقق أمله الذى كان

يحلم به وهو دخول بيت المقدس ، والاستيلاء عليه . ولكنه عقد النية على إعادة الكرة بعد انتهاء مدة الهدنة . وقبيل رحيله أرسل إلى صلاح الدين كتاباً يذكر له فيه أنه عائد للحرب ، ولن ينثني عن ذلك حتى يخلص بيت المقدس من أيدي المسلمين . فأرسل له صلاح الدين خطاباً رقيقاً ذكر له فيه أنه إذا لم يكن هناك مفر من هزيمته فإنه يفضل أن ينهزم لريتشارد لا لملك آخر غيره .

عاد صلاح الدين إلى القاهرة ، وأخذ يوطد ملكه ، وينظم حكومته ، ويبني الحصون والقلاع والمساجد . فبنى قلعة عظيمة فوق جبل المقطم ، وأحاط القاهرة بسور عظيم ، وجعل ينشر التعليم بين الأهالي ، ويعنى بأمر رعيته ، فأحبه الجميع لعدله وكرمه وشجاعته ، وتغنت الركبان بذكره . ومدحه الشعراء بأنفس القصائد .

اتسعت مملكته فشملت مصر والحرمين الشريفين ، وجزءاً كبيراً من بلاد الشام ، وكفاه فخراً وشرفاً أن يخلص بيت المقدس من أيدي الصليبيين ، وأن ينتصر عليهم في جملة مواقع سجلها له التاريخ في صحائف الفخار والشرف .

وفي فصل الربيع من سنة ١١٧٤ أصاب صلاح الدين برد شديد ألزمه الفراش أياما ، ولما اشتدت عليه وطأة المرض ، ورأى

أنه هالك لا محالة تنازل عن جميع ما يملك لأعمال الخير ، وبناء المساجد والمدارس .

وفى إحدى الليالى فاضت روحه ، وصعدت إلى جوار ربها حيث مقام الصِّدِّيقِينَ والشهداء والأبرار . فحزن العالم الإسلامى لموته حزنا شديداً ، واجتمعت الآلاف المؤلفة من المسلمين ليودعوا بطلهم العظيم الوداع الأخير .

وها هى ذى الأعوام تمضى طوالا على موت صلاح الدين الأيوبى ، وما زال اسمه يذكر بكل إعجاب وفخار ، وما زال القواد والملوك فى مشارق الأرض ومغاربها يدرسون تاريخ حياته ليقفوا على مواطن بطولته ، كيما يسيروا على نهجها ، ويهتدوا بهديها .